# هلوسات

# هلوسات

خذوها بشتاتها وضياعها ودعونا نعقد اتفاقاً قبل أن

تبدأوا..

في كلِّ يوم كنت أعيش تقلبات تلك العاطفة اللعينة

وأسطرها كما هي، بالفوضى التي أحملها في داخلي..

فإن كنت من هواة الترتيب فلا تحسب أنك ستقرأ

سُلَّماً موسيقياً. لا أريد أن تبتئس وتترك كلماتي.. قم بترتيبها

إن أردت وأعدها لي لأعيد نشرها..

أما إن كنت تعتقد بأنك تحمل بعض الجنون و تعيش

ثلاثين مزاجاً في اليوم الواحد فقلبي وكلماتي رهن إشارتك..

# حرارة الأيام تشتد.. أظنها مصابة بحمى التعاسة..

عمار عبد السلام ويب

لقد كانت ليلةً بائسةً يا صديقي ومليئة بالكوابيس..

كنت قد أنهيت عملي المعتاد وبدأت بتحضير فنجان قهوتي المعتاد أيضاً..

بعضٌ من الآلام لازمت رأسي وشعرت بأني أغادر عالمي، لا بُدَّ أنها من قلة النوم أو الطعام _قلت في نفسي.

وبعد لحظات، وأنا أتناول أولى رشفات قهوتي وأشعل سيجارتي، تراءى إلى مسامعي تهامسات مألوفة جعلتني أسرح في أفكاري..

طردت النوم عني وأحضرت بعض الورق وشرعت أسطر بعض الحكايا .. لكن، لن تصدق ما جرى..

لقد كانت الحروف تتناثر وتسبح في فضاء الغرفة..

قل لي بالله عليك، أيعقل أن تهرب منكـــ..؟

_مع من تتحدث يا ولدي؟ _قاطعني صوت أمي.

_مع صديقي يا أماه.. أخبره ما حصل معي ليلة أمس..

_أجارك الله يا ولدي، أيّ صديقٍ هذا.. جُنَّ جنون الصبي وفقد عقله..

_لماذا تنعتينني بالجنون أمام صديقي يا أماه؟ أنتِ تحرجينني.

يرن هاتفي فأستقبل المكالمة..

_أهلاً يا حبيبتي.. كيف حالكِ؟ أعذريني فقد كنت أحادث أمي ولم أنتبه لرسائلكِ..

_أمك، لكنها... _أجابتني.

_لكنها ماذا؟ إنها هنا تبعث لك بالتحيات.

تفضل يا سيدي فنجان قهوتك .. _قاطعني صوت النادل.

_شكراً لك..

_العفو يا سيدي.. لقد سمعت بأنك ستسافر، سنشتاق لك..

_أجل يا صديقي.. فلم يبقَ لي في هذه الدنيا سوى بعض الأطياف التي أكتبها في أوراقي اللعينة هذه.

**********

**رسالتي لكِ بعد ثلاثين عام..**

**مرحباً يا صغيرتي**

**كيف حال أعوامك الخمسين؟ لقد هَرِمتِ وغزا الشيب شعركِ وأحاط عينيكِ تجاعيد الكِبر.**

**اعذريني يا صغيرتي، فقد تَصلكِ رسالتي متأخرة.. لكني، أقسم لكِ أني وفي كل مرة كنت أحاول فيها أن أغزل لكِ حكاية من حكايات أشواقي، كانت كلماتي تخونني فأمزّق الأوراق واحدةً تلو الأخرى.**

**كيف حال موضعي في قلبكِ؟ هل بقيت ذكراي عالقةً في أرجاء روحك وفي ثنايا عقلك؟**

**أنا يا صغيرتي ما زلتُ عالقاً في ذاك المكان الذي أضحى بارداً بعد رحيلك، ظلَّت روحي هناك وتابعت سيري جسداً بلا روح وتُهت بين أوراق رواياتي وعوالمي في انتظارك..**

**لا تَعجبي يا عزيزتي فكلُّ ما مضى بعد لقاءنا الأخير كان بالنسبة لي مجردَ نسماتٍ باردة أثلجت ساعاتي وجمَّدت تواريخي..**

**في النهاية، اسمحي لي أن أمزق هذه الرسالة أيضاً وألحقها بسابقاتها فلست أدري إن كانت نسمات الفراق قد نجحت في إبقائك على العهد كما فعلت بي..**

**واعذريني يا صغيرتي فقد اعتدتُ أن أكمل قصص حبي لكِ فوق أوراقي..**

**********

لقد كان حلماً رائعاً يا عزيزتي، إذ كان يحمل في ثناياه كثيراً من الفرح والحب والخوف..

حمل إليّ صدى ضحكاتكِ وملمس يديكِ.. كنتِ قريبةً مني وبعيدةً في ذات الوقت، وكان الجو هناك خريفياً ماطراً، تحمل نسماته شذى عطركِ. تارةً أراكِ هاربةً إلى أحضاني كابحةً برد الخريف، وكأنَّ أحضانكِ شمسٌ صيفية تبدد الغيوم المحملة بزخات مطر باردة، وتارةً أرى طيفكِ يبتعد مما يثير غضب كل ما حولي ..

ثم أثار خوفنا بعضٌ من الشياطين التي كانت تطلق ضحكاتٍ ربما تنم عن شماتة، أظنُّ أنها أخطاؤنا، وأظنُّ أن رئيس الشياطين ذاك كان قرارنا البائس بالفراق..

لقد كان حلماً مجنوناً مرعباً وجميلاً في آنٍ معاً. كحكايتي معكِ، كان يحمل الكثير من الصخب والهدوء والخوف والأمان ..

حلمٌ أجج مشاعري وحنيني وأرّقني لدرجة أنني نهضت أبحث عنكِ في كل أروقة غرفتي وجلست أبحث في هاتفي عن رسالة خجولة لعلكِ قمتِ بأرسالها في لحظة شوق باغتتكِ كما باغتني هذا الحلم الجميل العَصي عن الوصف.. وما جعله رائعاً قليلٌ من وجودك..

**********

أنا مريضُ تأملات، وهاوي أحلامٍ وتخيلات.. لا أملك في هذه الدنيا سوى كتبي ورواياتي وأوراقٍ رخيصة أكتب فيها بعض الهلوسات ..

لا أملك سوى كلماتٍ سطرها ديستويفسكي وأحفظ بعض القصص القصيرة التي رتّلها تشيخوف..

أكتب عن الحب وألمه وعن مراراة الفقر وفساد الموظفين..

ساقني شغف المعرفة ولذة الأدب لابتداع بعض العوالم الخيالية، راسماً على السطور حياةً مشرقة.. لقاءاتٌ مع عشيقتي وموائدٌ مليئة بأشهى الأطباق..

أبحث عن الأمان في عالمي المليء برائحة الورق والقهوة..

أفرح لزفاف بطل الرواية في نهايتها، وأعيش معه كآبته وحزنه وأقضي عطلتي الصيفية على ضفاف أحد الشواطئ التي وصف جمالها أحد كُتابي المفضلين..

أتلاشى في لحظات وأغيب بين الكلمات، أضبط القوافي وأحررها.. أهوى الشعر وأجود بالنثر ..

سارحٌ بين الطرقات الضيقة متأملاً قساوة أحجار البيوت القديمة، باحثٌ في كل تفاصيل هذه الأرض عن عالمٍ يشبه ما أنا غارقٌ في طياته..

**********

_كيف وصلت إلى هنا؟

_ماذا تقصد ب "هنا"

_أقصد اللامبالاة خاصتك..

_لست أدري يا صديقي، ربما يكون ما تقوله صحيحاً.. فأنا لم يعد يعنيني في هذه الدنيا أيّ شيء..

لا أمل من الحياة ولا أمل حتى من أن أبقى متأملاً.. لقد أصبحت متيقناً بأني أعيش في زمانٍ ليس بزماني .. لا أدري، ربما حدث خطأ ما.

أقرأ في العديد من الكتب عن الكثير من البؤس والفراغ.. أنظر حولي فأجد أن هذا العالم هو حقاً بائسٌ لهذا الحد..

لكني أيضاً أعجب من همة أبطال الروايات.. يتعرضون للكثير من الأسى لكنهم يمضون قدماً وينتصرون.. لقد جربت أن أفعل مثلهم وأن أرفع رأسي وأمضي.. والنتيجة كانت أني شعرت ببعض الآلام في رقبتي وقدمي..

أنا بائس.. الحياة هنا مظلمة كثيراً..

_كلما أنهيت كتاباً تقصّ عليّ الحكاية ذاتها.. ربما عليك أن تتوقف عن القراءة.

_ربما عليّ أن أتوقف فعلاً، أن أتوقف عن الحديث معك..

**********

"لقد طفح الكيل بي ..

ها أنا ذا أعيش أتعس أيام حياتي.. أنا متعب ومنهك القوى.. ثم أنني بدأت أفقد الشغف وهذا آخر ما أملك"

انتهى "سامر" وهو شاب في الرابعة والعشرين من عمره، لكنَّ لحيته والهالات السوداء التي تحيط بعينيه توحي لمن يراه بأنه أربعيني، من كتابة هذه الآلام على أوراقه الرخيصة، ثم جلس يستحضر ذكرياته الأليمة كعادته.. وحيداً، حزيناً، بائساً.

أسند ظهره إلى الكرسي وبدأ يتأمل سقف غرفته البائس مثله، غرفته التي استأجرها لقاء مبلغ زهيد يبلغ نصف راتبه كممرض..

لقد جفَّ حبر قلمه وامتلأت أوراقه بخربشاتٍ لا تُسمن ولا تغني، وحلمه بسطوع اسمه ككاتبٍ مشهور بدأ يتلاشى وعادت الخواطر السوداء لتستبد به وعاد الحزن وانشغال البال يسيطر على مجامع قلبه، حتى رسائله لمعشوقته الجميلة، جفَّ منها الغزل ولم يعد يشعر بأنها تجعل حياته أقل ضجراً.. كلُ شيء سواء.

طيف أمه الراحلة يزوره في كل ليلة، يرعاه قليلاً و يؤنس وحشته ويطبطب على أحزانه، وصبر أبيه الراحل أيضاً الذي ورثه عنه يُبقيه صامداً أمام وحشة هذا العالم..

وفي لحظة يأس.. خاطب طيف أمه:

"إن حلمي يا أماه أكبر من واقعي المرير"

**********

_من المحزن أن يشيخ الإنسان يا صديقي..

_لكنك لا تزال شاباً !

_لقد أصاب الذبول روحي. ضعف بصري وغدوت كهلاً لا يقوى على النظر دون نظارته، وربما أحتاج إلى عكازٍ يسندني في مسيري..

إنها معادلة حسابية صعبة قليلاً، أو ربما غير مفهومة.إنني أنظر إلى نفسي في المرآة فأجدني في كل يومٍ أكبر عاماً، أفقد إنساناً فأكبر عاماً..أزداد فقراً فأكبر عاماً أيضاً، وعندما أصبِر أكبُر أعواماً عديدة..

لا شيء يوقف ذلك النزيف في داخلي..

أنا هذا الكائن الهرم الذي أتمَّت روحه عامها التسعين، أو أكثر..

لم أعد أهتم لما يقولون، ولم أعد أرى أحداً أو أشعر بوجود أحد، أسير كجثة وأختنق بما يدخل إلى رئتيّ.. كثير النسيان والانزعاج..

تزداد وحدتي وأتخذ من الصمت رفيقاً وملازماً لي، أعتاد عليهما لدرجة أني لم أعد أجرؤ على فراقهما..

ثم أني توقفت عن الاهتمام بكل شيء..ورغم ذلك لم أستطع أن أصبح مرتاح البال، كلُّ شيء يقتلني..

كنت أحمل في قلبي كثيراً من الأحلام.. لكني لم أستطع أن أصبح إلا عجوزاً في العشرين من عمره..

ربما يكون كل ما أكتبه واقعاً مريراً يعيشه كثيرون.. لكني غارقٌ في عوالم أخرى.. أقرأ عن اليوتوبيا وأتذوق بعضاً من قصائد نزار.. أريد أصلاح العالم.. لكن، أليس من الأولى لي أن أصلح ما هدمه هذا العالم في داخلي؟

أسعى جاهداً للوصول إلى غايتي.. متناسياً ما قاله ديستويفسكي بأن "غاية الغايات ألا تفعل شيئاً"

كثيراً ما ظننت أن هذا الحزن مصدر إلهامي والنصوص التي أكتبها..

جائز أن أكون قد تألمت كثيراً لكني أعطي هذا الألم الكثير من روحي.. الكثير من التناقضات تتصارع في عقلي المنهك ..

**********

إننا في طريقنا لأن نعيش كما عاش أجدادنا في المضارب، نتدفأ على الحطب وننفخ النار بالشفاه..وقد أضحينا يا أصدقائي غريبين في بلادنا ومتعبين. أحلامنا تتفجر ويسري في عروقنا التخلف..

في بلادي، تنصب الكمائن لأحلامنا وتُعتقل أمنياتنا. لكن، ما الفائدة من قول هذا؟ فأنتم ستقرأون كلامي وقد ينتابكم بعض الحزن وربما ستذرفون قليلاً من الدموع آسفين متحسرين.. رغم أنها مصيبةٌ لا تُبكى..ليس عليكم أن تبكوها فهي ستقتلكم، وعليكم أن تدعوها تقتلكم.

لن أطيل عليكم فأنتم رغم تلك المصائب أناسٌ فقدوا مبالاتهم ولا جدوى من إكمال الحديث فقد استوت في أعينهم كبائر الأمور وصغائرها..

**********

كنت أظن دائماً بأنها النهاية، لكني في كلِّ مرةٍ كنت أعود وأشق طريقي مجدداً.

عشت كثيراً من النهايات وفقدت كثيراً من قطع روحي لأدرك لاحقاً بأنَّ لي سبعة أرواح..

وأنا الآن أحاول الصمود أمام النهاية الأخيرة، متمسكاً ببعض الآمال والأوهام..

يشقُّ علي كثيراً أن أحارب، لكنَّ غريزة البقاء توقد في داخلي مزيداً من الرغبة.. ولا أدري إن كانت هذه الرغبة ضروريةً، فما عدت أجد دافعاً للبقاء.

أعيش ذاك الصراع المعتاد، الذي سلب مني روحي، في كل مرة لكنَّ الحرب هذه  أشدُّ ضراوةً وقسوة، رغم أنها لا تزال في بدايتها، روحي مفككة ومشؤومة ككلماتي التي لم يبقَ لي للنجاة سواها.. إنّي شديد القلق.. أخشى على هذه الحروف أن تفقد بريقها فأفقد القشة التي ظللت أتعلق بها طويلاً.

وفي لحظات شرودي التي دائماً ما كنت أحاول فيها اقتناص بعض الكلمات الملائمة لساعات اليأس هذه رحتُ أيضاً أبحث عن سببٍ وجيه يدفعني لكتابة هذه الكلمات فلم أجد سبباً مقنعاً سوى أني فقدت قدرتي المعتادة على التفاؤل ولأنها آخر المعارك، ولأني بدأت أعيش خصاماً كبيراً مع الصبر، فأجدني مستسلماً رغم وجود العديد من المعارك المتبقية..

**ربما تكون هذه نعوتي وآخر قطرات الحبر في قلمي وآخر صفحاتي التي كنت أبذل في سبيلها دائماً قطرات من الدم وأنثر عليها من نفحات روحي.. لكني أعيش معركةً أخيرة مع النهاية الأخيرة وأضع روحي على كفي، فإن استشهدت هذه الروح السابعة وفقدتها فمن المؤكد أني سأفقد معها كل شيء..**

**********

لست نادماً على ما خلّفته تلك العزلة من دمارٍ وبؤس في كلِّ أرجاء روحي وعلى جعلها مني كائناً لا يريد سوى أن يتذكر سبباً وجيهاً دفعه إلى البقاء حتى هذه اللحظات.

مضى الكثير من الوقت. جاهدت كثيراً في عزلتي باحثاً عن حلم لعين، عن الحب والمعرفة..

في عزلتي اللعينة كنت دائماً ما أستحضر أطياف من حملهم القدر لي.. أكتب اسماءهم على الورق الأسمر الرخيص وعلى الوجه الآخر من كل ورقة بعض الاقتباسات والمقتطفات من الروايات التي أوشكت على سلبي قدرتي على الرؤية والعودة إلى واقعي..

كنت أبحث عن كائنٍ ما يحبني ولا يشفق على حالي وقد أطلت البحث حتى أصبحت عاجزاً عن التذكر.. هل وجدته؟

لم أعد أذكر أيّ شيء..

أنا صفحةٌ بيضاء منهكة سلبت منها ممحاة التفكير المستمر والحياة القاسية كلَّ ما كُتب فيها ، وأملك من الاضطراب ما يكفي ليجعني أشرِّد هذه الكلمات وأباعد بين أفكارها وأفقدها صلتها ببعضها عقاباً لها على خذلانها لي في كثيرٍ من الأحيان وعلى سلبها مني قدرتي على العيش حراً طليقاً

**********

قد يكون ما سأكتبه الآن ضعيفاً مشتتاً دون مقدمةٍ أو خاتمة..

وقد أخون بهذه الكلمات مبادئي في الكتابة فلا أُراعي قاعدةً أو سرداً أو ترابطاً..

ولربما أكملت لكم على هذا النهج حتى آخر الكلمات دون أن أجد منفذاً أصل منه إلى غايتي، فأظلُّ أكتب وأكتب حتى يؤنبني ضميري المهني ككاتب..

سأبتعد قليلاً عن الاعتناء بكل كلمةٍ كعادتي، وسأسطِّر ما كل ما يخطر ببالي في هذه اللحظات المظلمة..

سأناجي الله أمامكم أولاً وسأطلب منه الرأفة والعفو على أيَ ذنبٍ اقترفته وسأرجو منكم الدعاء له بإن يخفف عني وطأة ما يحلُّ بي..

وسأرجو منكم أيضاً أن تطلبوا منه جمعنا على دينٍ واحد وطائفةٍ واحدة علّني أظفر بسعادتي وغايتي

أما ثانياً ف سأحدثكم بكلماتٍ قليلةٍ عن رزقٍ ساقه الله لي فما عدتُ أرجو من الله شيئاً سوى صون هذا الرزق..

رزقٌ على هيئة سكينةٍ وسعادة حملها أحد ملائكة الله ووضعها في شخص أحدهم، ثم زُرع هذا الشخص في قلبي

وسأرجو منكم أخيراً أن تصفحوا عن أخطائي وتقبلوا مني هذه الكلمات على ما هيَ عليه دون زيادةٍ أو نقصان ..

واعذروني أيضاً فهذه وسيلتي الوحيدة في التعبير عما يفيض في قلبي من تناقضات و ألم..

# الساعات الأخيرة من العام.. الكلمات الأخيرة وقطرات الحبر الأخيرة..

**********

عامٌ جديد يطرق الباب.. سأبدأ به إلى جانبكِ يا معشوقتي وسأطوي الصفحات الحزينة، صفحات العتاب والحزن والتفكير بما سيحدث لاحقاً.

سأبتاع من الأمل أقلاماً جديدة ومن سحر ضحكتك الأوراق، ومن حُسن عينيكِ إلهامي.

قصصي القصيرة ستتحدث عن جمال كلماتكِ وجنونكِ ونصف نصوصي سيكون مسؤولاً عن شعرك بينما النصف الآخر عن وجنتيكِ سأكمل المسير في الرواية التي أتحدث بها عن مدى عشقي لكِ..

سأنتصر لحب بطل الفيلم الذي أكتبه وأجعله يهرب مع حبيبته ليكمل معها بقية حياته..

سأقرأ جميع روايات الغزل وسأقتبس أجملها وأقدمها على طبقٍ من حب..

سأجدد عهودي التي قطعتها لكِ وسيظل فرحكِ أهمَّ طموحاتي و أشدَّ ما أرغب به..

وسأواصل مناجاة الله في كلِّ ليلة بل في كلِّ دقيقة وكلّ ثانية بأنَّ يرزقني قربكِ فلا شيء سوى جبروته قادرٌ على أن يجمعنا..

كما أني سأعاود انتخابك رئيسةً لجمهورية العشق التي بنيتِها أنتِ..

**********

لقد أخبرني الطبيب في آخر زياراتي له _منذ حوالي ثلاث سنوات_ بأنَّي أعيشُ أيامي الأخيرة وبأنَّ قلبي قد امتلأ بالكثير من الكدمات التي خلَّفتها الأيام الفاسدة، ولم يعد قادراً على الصمود.. كنت سعيداً جداً ب دنو أجلي بالرغم من إدراكي حقَّ الإدراك بأن روحي قد امتلأت باللامبالاة وبأني ميّتٌ منذ ما يقارب عشر سنوات، وبأني ألفت كلَّ شيء ، حتى الحطام المحيط بي والشيب والغليون والموسيقى المنبعثة من تلك الآلة الصدئة.. كما أذكر أني قد عقدت صلحاً مع مَلَك الموت لِ يتركني وشأني، جسداً دون مشاعرٍ أو إحساسٍ بشتى أنواع الألم، جسداً ممزقاً دون روح.

ها أنا ذا أجلس جلستي المعتادة، أستمع إلى المقطوعة الحزينة التي اعتدت سماعها عند وفاة أحد الأشخاص المقربين مني، أسمعها حداداً على روح الطبيب الذي سبقني البارحة إلى العالم الآخر ..

لقد توفّي وتركني لأبحث عن طبيبٍ جديد يُبشرني بدنو أجلي..

لا أزال متفائلاً بشأن اقتراب النهاية.. أستشعر قربها لكني أحتاج طبيباً أو إنساناً صادقاً يُفلح في التنبؤ بها..

كما أنني لا أزال أتوسل قلمي للصمود أكثر، لقد خطَّ الكثير من المآسي ورثى الكثيرين ممن فارقوا عالمي، وأستنجد بالأوراق كي لا تتركني وحيداً كما تركني المقربون والأطبّاء

**********

في صباحٍ من صباحات كانون الثاني كنت قد عزمت على مجاهدة نفسي والذهاب إلى الجامعة اللعينة في البرد القارص، فإذا بي أصادف تلك العجوز التي كنت قد لمحتها ذات مرة في طريقي إلى الجامعة مجدداً..

عجوزٌ تجرّ ولدها المُقعد على الكرسي المتحرك وتنادي بملئ صوتها " يا الله " ، تطلب من خالقها العون وترجو من عباده الذين قست قلوبهم بعضاً من الشفقة..

ساءني حالها وأخذت أردد في قرارة نفسي " لا تحزني يا أماه ف خالقكِ لن ينساكِ .. سيستجيب ويرزقكِ فرجاً وفرحا"

أكملت طريقي مثقلاً بحزنٍ شديد آسفاً على حالها و حالي وحال جميع الأبرياء الفقراء من أمثالها..

لعنت الحروب أولاً ثم لمت نفسي، فالحرب لا ذنب لها بما أصاب تلك العجوز..

حاولت في رحلتي التي تستغرق ساعةً من الزمن أن أبحث عما أفضى بنا إلى هذا الحال..

الحقد والأنانيّة ؟ ربما كانا سببان وجيزان.. ربما جفَّ الحب في قلوبنا ولم نعد نأبه لفقيرٍ معدم أو ولدٍ مشرد..

كلنا فقراء، أيعقل أن يكون هذا سبباً ؟ .. لا أظن ذلك،

هذا ليس شفيعاً..

**لا أدري ما سر ذاك اليأس الذي اجتاحني و استولى على مجامع قلبي.. يؤسفني حقاً ذاك الحال وتؤسفني قساوة قلوبنا و ما ألمَّ بنا.**

**أذكر أن ما خلصت إليه حينها وما كان أشدَّ الأشياء ثبوتاً في عقلي بأن الله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم.**

**********

كنت في جميع زياراتي الأسبوعية لِ مقام الشيخ الأكبر " محي الدين بن عربي " أدخل مسرور النفس و مبتهج القلب، فرِحاً بِقُربي من الله و اتّباع نهج نبيه و أوليائه..

كنت أخطو الخطوة تلو الأخرى.. أقترب من المحراب وأصلّي في ذاك المكان الطاهر ، أدعو الله في سجودي بأن يوفّقني في دراستي و حياتي و أن يَهديني سُبل الرشاد و يثبّت قلبي على دينه ، وكنت حين انتهائي من صلاتي أقف وأنظر حولي وأستنشق من قدسية المكان ثم أتجه نحو رفوف المكتبة حيث يوضع القرآن الكريم ، أتناول مصحفاً و أسند ظهري إلى الحائط وأبدأ الترتيل حتى تمتلئ روحي بغذائها ، و بعد قراءة ما يتيسر لي ، أسير بخطى ثابتة وأجلس قرب المقام ، أبدأ خطابي بِ : السلام عليك _يا وليّ الله_ ورحمته وبركاته..

أنتظر بضع لحظات ثم أرجو الله أن يستجيب لِ دعائي ببركة وليّه و أتضرّع طالباً التوفيق والسعادة في الدارين ..

ذات مرة جلس بجانبي شابٌّ في العشرين من عمره (أو يزيد) ، جلس كما أجلس ، ولم تمضِ سوى لحظاتٍ قليلة حتى رأيته يبكي بكاءَ شديداً ، كان مكسوراً بالكامل ، عجبت لحاله وتساءلت في نفسي : أيّ الآلام تدفع بنا إلى البكاء والتضرع هكذا ؟

ظللت بعد خروجي برهةً من الزمن وبكاء هذا الشاب لا يفارقني ، وفي كل مرةٍ كنت أقلّب في ذهني الأسباب التي يمكن أن تجعل شاباً يبكي بحرقةٍ هكذا..

مضى على هذه القصة عامٌ ونصف و أظنني اليوم عرفت.. بل بِتُّ أجزم بأنه كان عاشقاً يرجو الله أن يجمعه بمن أحبّها على سنته وسنة رسوله الكريم ..

لست أدري .. فربما كانت دموعي التي ذرفتها عند المقام البارحة شبيهةً بدموعه وانكساري يشبه انكساره ، أنا عاشقٌ أرجو الله في مقام هذا الشيخ و أذرف الكثير من الدموع تضرعاً و لعله كان مثلي.

**********

في عيد ميلاد صغير عائلتنا..

" الولد لو بار تلتينو للخال "

هذا ما يرددونه دائماً و هذا ما قاله أجدادنا و من المؤكد أنهم كانوا صادقين..

صغيري العزيز.. يا فرحة أختي الأولى وحفيد عائلتنا الأول..

اليوم تُتم عامك الثاني.. تكبر عاماً ويزداد حبك أعواماً وأعوام ..

سأكتب لك يا صغيري هذه الكلمات في هذا العام و في كل عام ما يشبهها ، وعندما تبلغ عامك العشرين سأكون قد كتبت لك عشرين معايدة وآلاف الكلمات لتحتفظ بها وتُتقنها فتكمل مسيرة خالك في الكتابة وهذا ما أتمناه أشدَّ التمني..

يا صديقي الصغير و يا ناثر الفرح في أرجاء روحي و غُرف قلبي كلَّ عامٍ وأنا شديد الرجاء والأمل في أن يرزقك الله السعادة و الإبداع..

أراني الآن يا عزيزي ، وربما كان هذا سابقٌ لأوانه ، أحد الحضور في حفل توقيع روايتك الأولى التي سنتفق فيما بعد على تسميتها..

كما أرجو في هذه اللحظات أن تُسابق الأيام وتكبر عاماً تلو الآخر فتتعلم القراءة والكتابة وتكتب لي في عيد ميلادي.. هذه بضع كلمات سأهديك نصفها وأقرضك نصفها الآخر..

سامحني يا عزيزي فقد جعلت من هذه الكلمات معايدةً ووصية لكنني شديد التعلق بك وبالكتابة ف وددت في أن أجمع من أحب و ما أحب تحت رايةٍ واحدة وفي طريقٍ واحد..

**كل عام وأنت الهدية الأثمن لعائلتنا و مصدر فرحها.. أتمنى لك في يوم ميلادك أن يجعل من أيامك أنهار سعادة و غابات فرح**

**ابتسم دائماً و سأحبك دائماً..**

**********

في إحدى جولاتي الأسبوعية للأحياء الشعبية في دمشق العزيزة صادفني ذلك المشهد بقساوته الشديدة..

طفلة صغيرة بثيابٍ مهترئة و أقدامٍ حافية و روحٍ منهكة جعلتها تتهاوى على الرصيف و أخٌ لها يواسي حزنها ويمدها ببعض القوة بكلماتٍ لم أسمعها..

وكعادتي في تصوير الأشياء الفريدة و ولعي الشديد في اقتناص تلك اللحظات قمت بالتقاط العديد من الصور ، كان أشدَّها ألماً وأكثر ما هزَّ أركان قلبي ، تلك اللقطة التي صاح بها ذلك الطفل أثناء مشاهدتي :

_هيه .. يا سيد ، ماذا تفعل؟

كان وقع صراخه على قلبي أشبه ب زلزال..وقفت بضع لحظات عاجزاً عن القيام بأيَ شيء ثم اقتربت منه و ابتسمت علّني أخفف من حدّة غضبه.. ثم أريته الصورة التي التقطتها و قلت :

_أنظر يا عزيزي.. تبدو رائعاً و...

_أيَّ روعةٍ تلك يا سيدي ؟ كمَّ الإعجابات الذي ستحصل عليه في فيسبوك ؟

أم أنك سترسلها إلى منظمات حقوق الإنسان لُتشفق على حالنا وتُرسل لنا الإغاثات؟

دعني أخبرك يا سيدي بما هو أروع من هذه الصورة..

**أن تتركنا وشأننا أولاً وتقوم بحذف هذه الصورة.. فنحن رغم فقرنا إلا أننا نملك من عزّة النفس ما يعادل ثمن كل آلات التصوير و كلَّ الدموع التي تذرفونها رياءَ و كذباً..**

**اتركونا وشأننا يا سيدي و اسعَ إلى إضحاك طفلٍ متشردٍ حاله ك حالي بقطعة حلوة ...**

**قم ببيع آلة التصوير اللعينة و اشتري بثمنها معطفاً أو رغيف خبزٍ للفقراء الصغار أمثالنا..**

**********

**المرأة والتنمية البشرية**

**الفصل السادس اللعين من كتاب التنمية  البشرية..**

**في هذا الفصل ما يقارب ألف كلمة مساواة و مئات المطالبات و المؤتمرات التي طالبت بالمساواة والتي أصبحنا في زماننا هذا نطالب بها نحن، معشر الرجال.**

**أشعر بملِ شديد و رغبةِ شديدة في استبدال هذا المقرر ببعض الأوراق لأكتب بعض الهلوسات أو حكايةً من حكاياتي برفقة أنغام معشوقتي "فيروز" أو لعلي أكتب رسالةً لقمرية الوجه أخبرها فيها كم اشتقت.**

**لكني...حسناً ، دعوني أرتب أفكاري أولاً و أطرح عليكم بعض الأسئلة في سبيل الجمع بين الشيئين :**

**أيعقل أن النساء في زماننا يحتاجون إلى مساواة؟**

**ماذا تعني المساواة في زماننا الظالم الموحش؟**

**لماذا أجد نفسي تائهاً كلما حاولت دراسة تلك المقررات اللعينة و لماذا أجعلكم تائهين مثلي ؟**

**لماذا أكتب هذه الكلمات بهذا الاضطراب ؟**

**لعل تلك المقررات ستفضي بي عما قريب إلى الجنون**

**********

<الرجل الذي يكره نفسه و الرجل الذي لا يحتاج إليه أحد>

دعونا نقصّ شريط الافتتاح لهذا النَّص بهذين العنوانين العريضين واعذروني على اضطرابي المعتاد والارتباك الذي يتملكني حين البدء فأنا في الآونة الأخيرة أشعر بأنني جسدٌ تبحث روحه عن السّلام، أعيش الآن جسداً فقط إلى حين العثور عن السّلام والسّكينة.

أعزّائي القرّاء: تحيةً طيبةً يملؤها ما تبقى في داخلي من حب.

أما بعد فإنّي في ليلة الثامن عشر من كانون الثاني لهذا العام البائس كنت أجلس جلستي المعتادة المنعزلة و السوداوية وأفكر ملياً :

ماذا أريد، و متى سأحقق ما أريد، ولماذا أشعر حيال نفسي بهذا العجز والكره، ولماذا لا أشعر بلذة أن يكون لي قيمةٌ أرضى بها عن نفسي؟

اضطراب العقل هذا دفعني للوقوف و السير إلى وجهةٍ غير محددة وهكذا بقيت طيلة ساعةٍ كاملة ، شديد الحيرة ، لا أدري ماذا أريد و ما سرّ هذا الشعور المفاجئ بأني أكره نفسي؟

كان تأنيب الضمير بوجهه الخيّر وحده من يرافقني.. تجسّد أمامي على هيئة ملاك وطلب مني الجلوس و الهدوء كما حاول ببعض الكلمات أن يداري ألمي لكنَّ الشيطان المختبئ بين تلك الأفكار التي أسلفتها قاطعه غاضباً ف درات بينه وبين ملاكي الطيب حربٌ ضروس .. كنت أسمع صوت العراك الدائر في عقلي المنهك..

ملاكي الطيب يصرخ في وجه ذلك الشيطان :

_دعه وشأنه فهوَ إنسانٌ طيب يسعى خلف حلمه.. وحيدٌ يبحث عن لحظة الإفراج عن حظه..

أما ذلك الشيطان فكان يرد ببرودِ شديد :

_إنه إنسانٌ فاشلٌ و مكروه.. هجره الجميع فبقي وحيداً يحلم أحلاماً لا أساس لها..

استمر الصراع لساعاتٍ وساعات ، واختصرت لكم منه حرصاً على سلامتكم ، لكنّه صراعٌ مزّق عقلي إلى أشلاء و جرّدني من روحي و رمى بي جثةً على رصيف الحياة البائسة.

**********

دعوت الله عند الفجر أن لا يدع على هذه البقعة الجغرافية أيّ فاسد أو ظالمٍ أو منافق و عند خروجي صباحاً إلى العمل لم أجد أحداً ; لا بُدَّ أن الله قد استجاب..

## رحلتي و محبوبتي إلى أرضِ لم يطأها أحد

في ليلةٍ شديدة البرودة، مليئةٍ بالشوق المضني، ثارت في داخلي ثائرةٌ أججت مزيداً من الأشواق واقتادتني إلى بعض الجنون، كنت مريضاً للقاء يجمعني بها، وبعد لحظات، وجدت نفسي فجأةً ، ودون أن أدركَ كيف حصل هذا ، في محطة القطار.

رأيتُ هناك قطاراً عُلِّق على أحد أبوابه لافتةً كُتب عليها "قطار الحب"

ركبت القطار و قطعت الدروب اللعينة التي تفصل بين أرضي وأرض محبوبتي، عازماً على اللقاء بها والسفر بصحبتها إلى أرضِ لم يطأها أحد والعيش رفقتها دون أن يدري بنا أحد.

كانت الرحلة شديدة الغرابة فقد كنت أرى من خلال نافذة القطار بأن الأرض التي أقطعها تتهاوى خلفي وبأنَّ عدد الركاب ينقص شيئاً فشيئاً..

كان شوقي الشديد لها يخفف وطأة الخوف والغرابة فقد كان كلُّ ما يهمني حينها هو الوصول، الوصول والمثول أمامها و التنعم بدفء يديها و سحر عينيها..

_لقد اقتربنا من الوصول إلى المحطة الأخيرة _ نادى صوتٌ من بعيد.

كنت ألتفت حولي باحثاً عن مصدر الصوت و عن الركاب.. اصبحت وحيداً !..

طردت كلَّ القلق الذي استبدَّ بي حين أيقنت بأني سألقاها، ولم يكن يهمني سوى تقبيلها والجلوس بقربها.

نزلت من القطار فلم أجد أحداً أيضاً .. مشيت بضع خطوات باحثاً عن سيارة أجرة لكن دون جدوى، الدنيا هنا خالية .. لا يوجد أحدٌ سواي. انتشلت هاتفي لأقوم بالاتصال بها وإخبارها بأني تائهٌ في ديارها لكنه كان مطفئاً.. واصلت المسير وأنا ألعن حظي البائس الذي يلازمني في كل خطواتي..

واصلت المسير علّني أجد من يرشدني .. بضع خطوات ، ها قد ابتسم لي الحظ أخيراً . تراءى لي طيفٌ من بعيد، طيفٌ يقترب مني، يقترب بتسارعٍ متزايد.. هذا الطيف ليس غريباً ! إنها محبوبتي.. هرعت مسرعاً نحوها لأحتضنها و أبدد كلَّ أشواقي و مخاوفي....

لكن صوت الهاتف اللعين كان السبّاق فبدد ذلك الحلم وبدد معه ذلك اللقاء المنتظر.

**********

أنا عجوزٌ في الخامسة والسبعين من عمري ، أدعى "أم أحمد"

تعبت الوقوف والانتظار لعدة ساعات فأسندت ظهري إلى هذا الجدار الذي كان سنداً لي و معيناً في كتابة هذه الرسالة ، و بعد أن سمح لي أناسٌ غرباء أمروني بالدخول إلى هذا الدار الذي يُسمى " دار المسنين" ببعض الوقت لكتابتها ، سأتركها على هذا الجدار .

أرجو ممن يعثر عليها أن يقرأها على مسامع أولادي ( أحمد ، مُحسن ، تيسير )..

أخبروهم بأنني لا أزال أنتظر حتى لو طال غيابهم وبأنّي واثقةٌ من عودتهم ، سيجدونني قابعةً هنا .. دون أن أبرح مكاني، سأنتظرهم.

وأخبروهم أيضاً بأنّي آسفةٌ على أفعالي وبأنّي لن أسبب لهم أيّ متاعبٍ إن أعادوني، وسأحاول الاعتماد على نفسي في قضاء حاجاتي كما سأكون مسالمةً أكثر..فلا أجرح أيّاً من نسائهم و لو بكلمةٍ واحدة و لن أتَدَخَل في ما يخصّهم.. أخبروهم بأني راضيةٌ بأن أسكن في غرفةٍ صغيرةٍ معزولة بنافذةٍ تُطلّ على غرف أولادهم كي أبقى على قيد السعادة فيما تبقّى لي من أيامي الأخيرة، أنا عجوزٌ في الخامسة والسبعين من عمري ولا أقوى على العيش بعيدةً عن أحفادي وأولادي .

قولوا لهم بأنَّ قلب الأم هو المسبب لخوفي الدائم عليهم ،

و ارجوهم أن لا يَدَعوا قسوة الأيام تهزم الحب الذي ربيتهم عليه و

بأني أدعو الله أن يهدي قلوبهم إلى الصواب و يوفقهم على كل حال..

**يداي ترتجفان و قلمي ينزف كما روحي آخر القطرات .. أخبروهم بأني أريد رؤيتهم وتقبيلهم للمرة الأخيرة.**

**********

لطالما دار في مخيلتي الكثير والكثير من التساؤلات أو المنغصات، إن صح التعبير. كانت هذه المنغصات تأتيني على هيئة شرود و أفكار:

أيُعقل أن يكون لكلِّ فعل أو وقت معنى حقيقي ومجدي؟

ربما من الصعب في كثير من الاحيان بالنسبة لي أن أتصرف على نحوٍ اعتاد كثير من الناس فعله. لا أظنه تفرداً ولا أدري أيّ الأوصاف أستطيع أن أستخدم..

فمثلاً، لا أجد في كثرة الضحك شيئاً رائعاً أو ممتعاً كما أنني في كثيرٍ من الأحيان لا أجد في الضحك نفسه شيئاً ضرورياً، كما أنني لا أجد في كثرة الحديث الذي يخلو من المعنى إلا شيئاً مؤلماً، ولطالما كنت شديد الندم على أحاديثٍ خضت فيها دون أن يكون منها أيّ فائدة..

قليل الاهتمام بالموضى و التكنولوجيا دائم الرغبة في القراءة والتعلم وتجنب الجلوس رفقة أحد الأصدقاء لأن في هذا مضيعة للوقت..

ودائم الرغبة أيضاً في الذهاب إلى أحد الأطباء النفسيين علّه يقدم لي الكثير من المهدئات..

أتساءل دائماً ، هل يعد هذا مرضاً؟.. هل يوجد مرض بهذه الأعراض؟

دائماً ما أجد نفسي أيضاً أسير الفراغ رغم قلة الوقت .. الكثير من تأنيب الضمير يلازمني

يتجسد أمامي في صورتي و يُلقي عليّ الأوامر ، افعل هذا .. لا تدع الثواني تفوتك ، لا تنم.. فقط أفعل شيئاً مفيداً ذا معنى.

حسناً.. دعونا نقسّم الحالة الذي أسلفتها إلى شقين :

شقٌّ مفيد ذو معنى وآخر شبيه بقنبلة موقوتة مزروعة في أحد تجاويف العقل..

أما المفيد في الأمر فهو بعض الشعور بالمسؤولية، العقل المتسلط الذي لا يرحم عند بروز بعض التقصير في أحد المسائل، وتركيز الضوء على أهداف معينة بشغف..

والقنبلة الموقوتة التي ذكرتها منذ لحظات هي أحد الآثار السلبية لمرض التفكير الزائد والجدّية، قنبلة موقوتة يتولد عند انفجارها كوكب من العزلة وكوكب آخر من الآلام التي تلازم الرأس وبعض الكويكبات الأخرى تمثل الجنون والهستيريا.

**********

على الرصيف المقابل لنافذة غرفتي وفي تمام الساعة الثانية عشر بعد منتصف الليل من كل يوم يقف كائنٌ غريب الأطوار.. خُيّل لي في البداية أنه أحد شخصيات روايةٍ كنت قد قرأتها منذ بضعة أسابيع..

يضع على رأسه قبعة ويلفَّ حول عنقه وشاحاً ويرتدي معطفاً طويلاً..

يأتي دائماً في نفس الوقت الذي اعتدت به أن أفرد أوراقي و أبدأ بالكتابة. في المرة الأولى شعرت بالخوف الشديد وصرت أحدّث نفسي:

"لعله حلم أو لعلَّ انعزالي بين الأوراق سبب ظهور مثل هذا الشبح"

ثم في المرات الثانية والثالثة و عند اعتيادي على ظهوره أصبحت لا ألقي له بالاً.. بل صرنا نتبادل التحيات عند انتهائي من الكتابة و قبل ذهابي إلى النوم.

ذات مرة دخلت إلى الغرفة في التوقيت نفسه أزحت الستارة فلم أره، نظرت إلى ساعتي .. لقد تجاوز الوقت منتصف الليل.. انتظرت بضع لحظات ثم شرعت بالكتابة.

وبعد لحظات سمعت صوت خطوات تقترب، أصواتٌ خارج غرفتي..

وقفت وأدرت ظهري لأجده واقفاً عند الباب، ابتسمت و قلبي يرتجف.. الباب موصدٌ بإحكام، كيف تسنى له الدخول؟!

_أهلاً وسهلاً يا صديقي.. كنت في انتظارك _قلت له.

كان وجهه عصياً على الرؤية، وظل صامتاً جامداً في مكانه.

بعد لحظات قررت كسر حاجز الصمت والخوف فأردفت:

_من أنت وماذا تريد مني؟

رفع وجهه لكنّي لم أستطع أن أقتنص أيّاً من ملامحه لشدة الظلام المحيط به ، وبعد لحظات قال :

_أنا صديقك مَلَك الموت.. أتيت إليك لأخبرك بدنو أجلك.. قم بإنهاء بعض الأعمال ريثما أعود ..

_متى ستعود؟

_بعد ثلاثة أيام..

_حسناً ، سأكون بانتظارك

## في اليوم الأول

في صبيحة اليوم التالي وفي تمام الساعة التاسعة استيقظت مشرقاً فرحاً ومستذكراً وعد ذلك الزائر ليلة أمس..

"ثلاثة أيام" ظللت أردد هذه العبارة أثناء نهوضي وذهابي لتحضير فنجان القهوة ..

الشيء الذي لا أريد إغفاله عنكم هو أنني وبعد انتهاء تلك الزيارة خلدت إلى النوم مباشرةً، كان ذلك رغبةً مني في أقضي الغد وأنا بكامل قواي العقلية والجسدية.

حسناً.. دعونا نكمل الآن سرد أحداث بقية النهار:

بعد أن حضرت فنجان قهوتي، هرعت مسرعاً إلى أوراقي التي ظلّت متناثرة.. قمت بترتيبها وتنقيح بعض ما كان مكتوباً فيها.. ثم أنهيت شرب القهوة وغادرت المنزل قاصداً المكتبة.. ابتعت بعض الأوراق البيضاء التي لم أعتد شراء مثلها بسبب ثمنها الباهظ وقلماً جديداً فاخراً..

كنت أرى في عيني البائع علامات الذهول التي كان سببها حسبما أعتقد، ابتسامتي غير المعهودة وسخائي المفاجئ.

وبعد أن خرجت من المكتبة قصدت أحد المقاهي المجاورة..

دخلت مرفوع الرأس معتزاً ومتباهياً دون أن أعرف السبب.. أو لربما كان الجلوس في هذا المقهى كان يشكل بالنسبة لي حلماً وهدفاً وها قد تحقق الحلم..

كان النادل ينظر لي ببعض الاستهزاء وكنت أقول في نفسي بأنه يظنني جئت إلى هنا لأتسول أو ربما كان في اعتقاده بأنني سأطلب فنجان قهوة لأشربه وأمضي دون أن أعطيه "بقشيشاً"..

أهملت نظراته وظللت محافظاً على ابتسامتي وأخبرته بأني أرغب في تذوق " النسكافيه"..

ابتسم ابتسامةً ساخرة ثم انصرف، ربما لفظتها بشكلٍ خاطئ، حسناً .. ليس بالأمر المهم _كنت أحدث نفسي.

وبعد انتهائي من شرب ال " نسكافيه" خاصتي.. خرجت أجوب الشوارع وأنظر إلى الناس بفرحٍ لم يعتدني أحدٌ به..

وواصلت المسير حتى أنهكت قواي ، حينها عدت إلى المنزل أجرٌّ نفسي..

دخلت مسرعاً إلى المطبخ لأحضر طبقاً شهياً أسدٌّ به جوعي المعتاد، وحين الانتهاء عدت إلى طاولتي لأسطر ما عشته في يومي على الورق الثمين وبالقلم الثمين أيضاً..

كانت الكتابة مختلفة ومملوءة بالفرح.. كتبت بعض القصص والنصوص النثرية وحاولت كتابة بعض الشعر..

استغرق جلوسي هذا عدة ساعات.. لم أشعر بمرور الوقت فقد كنت عازماً على لفظ آخر الحروف في ذهني، كما أنني في بداية مسيرتي في الكتابة كنت قد قطعت عهداً على نفسي بأن لا أترك حرفاً يجول في باطني دون أن أدونه في أوراقي..

المزيد من الساعات.. ها نحن نقترب من منتصف الليل، كنت أتساءل في نفسي. هل سيزورني اليوم أيضاً؟ أم أنه سيأتي في الموعد المحدد له بعد يومين؟

انتظرت قليلاً إلى أن تجاوز الوقت منتصف الليل وحين بدأ اليأس من قدومه يتسلل إلى داخلي وأيقنت بأنه سيحضر في الموعد الذي اتفقنا عليه رتبت أوراقي مجدداً وذهبت إلى النوم..

في اليوم الثاني توالت الأحداث بترتيبها نفسه.. زيارةٌ أخرى للمكتبة وشراءَ أوراق جديدة ثم زيارة سريعة للمقهى وجولة في الشوارع..

لكني في أثناء جولتي تلك صادفني ذلك المكان الذي جعلني أستردَّ بعض الذكريات وأعيد ترتيب مخططاتي.. هرعت مسرعاً إلى المنزل ثم جلست أكتب:

"لم يعد هناك الكثير من الوقت.. سأغادر هذا العالم في القريب العاجل.. لطالما أحببتك ولطالما رغبت في بقاءكِ لكنَّ فقري كان حائلاً دون ذلك.. لن أطيل، كنت أرغب فقط في إخبارك بأني لا أزال وفياً لحبكِ"

ثم خرجت واتجهت نحو مكتب البريد، وقمت بإرسال الرسالة إلى العنوان المحدد.

وأثناء عودتي وجدتني واقفاً عند الباب غير راغبٍ في الدخول، وبعد لحظات وجدت نفسي منساقاً إلى ذلك المكان، المكان الذي خسرت فيه قلبي وبقيت جسداً دون روح..

وفي أثناء وقوفي هناك تأزمَّ صراعٌ داخل عقلي بين شيطانين.. أحدهما يطالبني بالإبقاء على حالة الفرح باقتراب النهاية وشيطان الكآبة الذي يطالبني بأن أبقى حزيناً حتى ألفظ آخر الأنفاس ودون أن أطيل ولأن شيطان الكآبة هو دائماً المنتصر عاد السواد والحزن للاستيلاء على دواخلي، فعدت حزيناً مهموماً إلى المنزل وأتممت بقية نهاري غارقاً بين الكتب التي دائماً ما كنت ألجأ إليها في مثل هذه الحالات..

حلَّ المساء واقترب منتصف الليل، ألقيت نظرةً سريعةً على الشارع علّني ألمح طيف ذلك الزائر ولم تمضِ شوى لحظات حتى وجدته جالساً على الكرسي الخاص بي يتأمل الأوراق المتناثرة..

كان يمتزج في وجهي علامات الفرح والحزن ودون أن أشعر قلت له:

_أليس بمقدوري أن أفضي عما في داخلي لك؟

ظلَّ صامتاً لعدة دقائق ثم أجاب :

_تبقى يومٌ واحد.. قم بإنجاز ما تبقى من الأعمال.. غداً هو يومك الأخير.

_لكني...

قاطعني اختفاؤه المفاجئ ف سِرت متململاً متعباً وجلست على الكرسي.. لم أكن أرغب في الكتابة ولا أظنني قادراً على النوم.. لم يكن في وسعي سوى استحضار الذكريات والسماح لعقلي بأن يعرض عليّ شريط حياتي.

في اليوم الأخير استيقظت كئيباً كعادتي وكأنَّ شيئاً لم يكن.. نهضت وزحام الأفكار يثقل حركتي ومشيت ك رجلِ آلي مبرمج اعتاد الحركات ذاتها.. حضرت القهوة وجلست أتفحص أوراقي..

هل أقوم بإعطائها لأحدهم؟ _تساءلت في نفسي.

كنت حائراً بين أمرين، أولهما : الإبقاء على ما كتبته طيلة عزلتي ومحاولة تخليد اسمي كما كنت أحلم وثانيهما : وفاة أوراقي برفقتي..

لم أجد ما يدفعني للخروج ولم أتفقد صندوق البريد لأرى إن كان الرد قد وصلني.. حتى ما تبقى من روحي مشتت وذابل

ساعاتٌ مضت دون جدوى، حتى سيل الذكريات الذي دائماً ما كان يتملكني تخلى عني.. أشعر بالفراغ وكأنِّي قد فارقت الحياة الآن..

يبدو بأنني استسلمت ورضخت ولم أعد أطيق فعل شيء سوى الانتظار والخلاص..

**********

مات جميع الفقراء في بلادي و تحققت المساواة، قتلوهم جميعاً دون رحمة وأزاحوا عن صدوركم ذلك الحمل الثقيل.

نشروا بينهم الوباء وجرّدوهم من أبسط حقوقهم.

لا جدوى الآن من أن تتعالوا وتتكبروا.. لم يعد هناك أيّ نفعٍ من إطلاق الشعارات و إسرار الوعيد والخبث.

احتفلوا جميعاً فقد تم جلاء آخر فقيرٍ عن هذه الأرض المباركة، أرض العدل والمساواة..

احتفلوا، فلم يبقَ متشردٌ ليقترب منكم ويطلب ثمن رغيف خبز يسد به جوعه..

ولم تبقَ أرملةٌ تنظر إليكم نظرة العون والتضرع..

لم يبقَ على هذه الأرض يتيمٌ يطلب العمل بأجرٍ زهيد.

مات جميع الفقراء في بلادي وعمَّ السلام والهدوء.

اركبوا سياراتكم الغالية وقفوا عند إشارة المرور وافتحوا النوافذ..

لم يعد هناك من تشمئز منه نفوسكم..

ولم يعد هناك ما يدعوا إلى السرقة، المال مالكم و الحياة لعبةٌ بين أيديكم.

**********

لقد قتلت نفسي وجِئت أمثلُ أمامكم لأعترف بهذا الجرم وأقصّ عليكم دوافعي وأخبركم كيف حصلت تلك الجريمة ..

اعذروني بدايةً أيها السادة ، فأنا مرغمٌ على تلويث أفكاركم ب اعترافي هذا ، ولربما دعوتكم لفعل ما فعلته.

كنت مضطرباً أجلس برفقتها، ظلّت توسوس لي بالحزن ، وتدفعني للشر و تطلب مني إيذاء كلَّ من يصادفني

وكانت تتفرد وتتباهي بتمردها وخروجها عن المألوف وكره العادات والضوابط، وكنت بسببها أسير دائماً بعكس التيار، أهوى الوحدة وأكره العلاقات الاجتماعية و أفعل ما يحلو لي وكأنّي وحيدٌ في هذا العالم دون أن أكترث لكبيرٍ أو صغير ..

تخيلوا معي يا سادتي بأنها طلبت مني ذات مرة أن أرتدَّ عن ديني وأن لا أؤمن بالعقاب والثواب!

يا سادتي ، هذه النفس شريرةٌ للغاية .. تهوى الرذيلة والفاحشة والإساءة للغير ، كانت أسوأ من الشيطان نفسه.. بل من شدة سوءها بتُّ أجزم بأن الشيطان خادمٌ وتلميذٌ عندها..

لن أطيل عليكم يا سادتي فأنا خائفٌ جداً.. إنني أخشى وصولها الآن.. أخشى أن تُبعث من جديد وتلحق بي، فتعبث بعقولكم و تدفعكم للصفح عني..

نعم يا سادتي، أخشى أن تصفحوا عني .. أريد أن ينفذ في حقي حكم الإعدام..لقد قتلت نفسي، لقد ارتكبت جريمةً نكراء.. أرجوكم يا سادتي أن تُسرعوا في اتخاذ قراركم فقد استشعرت قربها..

**ستنتقم شر انتقام ولن يكون في وسعي قتلها مجدداً.**

**********

ساعاتٌ من الترقب، القليل من الخوف والكثير من التفكير..

لطالما ظلَّ عالقاً في ذهني أول الكلمات وبداية الحكاية التي كنت فيها مضطرباً كما الآن..

حدث هذا في الخامس عشر من نوفمبر وفي تمام الساعة العاشرة والنصف، أي ما يسبق كسر حاجز الخوف بسبع دقائق، كنت حينها قد أسندت ظهري إلى الكرسي ممسكاً بهاتفي ومتأملاً فضاء غرفتي..

في الدقيقة الأولى : شيءٌ ما يدفعني لخوض غمار هذا الحديث.. لربما كانت الحاجة إلى شريكٍ يؤنس وحدتي التي عشتها طيلة حياتي..

أما الدقيقة الثانية فحملت إليّ بعض الخوف من حظي السيء المتربص بي دائماً

تلتها الدقيقة الثالثة التي حملت معها شيطان الكآبة.. ذاك الشيطان الذي كان دائماً في عملِ دؤوب للحفاظ على موت روحي وكان دائم السعي لمنع بعث الفرح فيها..

في الدقيقة الرابعة أصابني بعض الإرهاق.. أحسست برأسي ينزف يأساً.. كثرة التفكير كانت دائماً علّةً ووباءً وكانت أيضاً تُحبط كلَّ محاولاتي في المسير..

الدقيقة الخامسة : شيءٌ آخر يجول في داخلي.. أظنه كان رغبة، رغبةً شديدة في المخاطرة والذهاب بعيداً في هذه الحكاية دون الاكتراث لما قد يحدث من عواقب..

**أما الدقيقة السادسة فأمضيتها في تأمل سحرها وشذى الفرح الذي يحيط بها .. في تأمل عينيها وابتسامتها..**

**وحين اقتراب الدقيقة السابعة ، طردت كل مخاوفي وقررت الإبحار على متن سفينة عشقها..**

**********

في بدايات اغترابي عن وطني للبحث عن مستقبلٍ مشرق، كان الشيء الأكثر صعوبةً والأكثر طرافةً أيضاً هو عدم إتقاني للغة البلد الذي لجأت إليه..

كثيراً ما كنت أضحك مع نفسي عند ذهابي إلى أحد المولات لشراء بعض الحاجات..وكثيراً ما كان يبعث في داخلي السرور غضب البائعين الأجانب، فقد كنت أخترع لغةً جديدة علّهم يستشعرون بأني سائحٌ أجنبي..

كنت أمضي معظم جولاتي في الشوارع في توزيع الابتسامات، وحين أتوه أحياناً أعيش معضلتين.. كيفية العودة وكيفية السؤال عن الطريق..

بعد عدة أشهر بدأت أتجاوز تلك المشكلة وتعلّمت بعض الجمل التي تعينني على التواصل.. وحين انقضاء المزيد من الشهور أصبحت متقناً ومتحدثاً فذاً..

وفي ليلةٍ بائسة أخبرتني أمي في رسالةٍ على "واتساب" بضرورة العودة لظرفٍ طارئ. حزمت أمتعتي وغادرت بعد بضعة أيام.. وحين وصولي حدث ما لم يكن في الحسبان، لقد كان من الصعوبة فهم ما كان المستقبلون يتحدثون به، وأصبحت لغتي الأم ضعيفةً ومشتتةً أيضاً.. ولم أستطع استرجاع قدرتي على التحدث إلا بعد انقضاء يومين من عودتي..

حتى الكتابة التي كنت قد اتخذتها طريقاً ومهنة لم تعد كذلك، فقد كنت أمزج في كتاباتي دائماً بي اللغتين.

**اللعنة، لا بد لي الآن من حزم قراري.. فإما النضال في سبيل تعلم اللغتين أو الاختيار بينهما..**

**********

أظنني شديد السوء والاضطراب وأظنكم ستعتبرون هذا الكلام لغواً لا طائل منه.. أما أنا فسأعتبره جبالاً أزيحها عن صدري وأرسمها بالقلم على هذه الأوراق.. وهذا يحدث لي دائماً عندما أرغب في وصف أو التحدّث عن الأمور التي تدفعني للاعتقاد بأني سيءٌ في الحب..

أحاول دائماً بأن أكتفي بالقول بأني سيءٌ في الحب لكني لا أجد ذلك كافياً.. وفي كلِّ مرة أثقب الأوراق في محاولات يائسة لمعرفة الأسباب.. فيذهب ضحية هذه المشكلة الكثير من الأوراق..

كتبت ذات مرة على أحد الضحايا بأنَّ العزلة والجدية و ربما كان الحرص على أدق التفاصيل هو السبب، وفي ضحيةٍ أخرى ألقيت اللوم على المنهج الذي اختاره عقلي للسير عبره، وفي ضحية ثالثة وجّهت أصابع الاتهام نحو الغيرة، وفي ضحية رابعة جزمت بأن الشوق والبعد قد سببا ذلك، وظللت أقتل المزيد والمزيد بكتابة الأسباب دون جدوى ودون الوصول إلى مرادي..

وكان ما يُخلِّص الأوراق دائماً من بطشي واستبدادي هو صوت هاتفي وأنغام محبوبتي التي تخبرني بأنها تحبني رغم كلِّ ذلك السوء..

فأعود إلى أوراقي وأكتب :

كم هو مؤسفٌ أن تُخمد حربك ببضع كلمات.

**********

# عقدة النقص والقطيع

كطبيبٍ نفسي عايش الحالة عن كثب وكان مكلّفاً بمهمة علاجها دعوني أقص عليكم هذه الحكاية علّكم تستقون منها العبرة والمعرفة

بدايةً، دعونا نتفق على أن سرّية المريض واجبة وأن إفشاء أسراره يتنافى مع أسرار المهنة لذلك سنطلق على بطل قصتنا اسم "ع"

اكتشفت أن بداية ظهور أعراض المرض عند صديقنا "ع" كان في العاشرة من عمره .. حينها وجّه أولى اللكمات لأخته التي تصغره بسنة واحدة بحجة أنها كانت تمازح ابن جيرانهم ..

وبعد مدةٍ قصيرة قام "ع" بصفع أخيه ذي الخمس سنوات لأنه قام بكسر أحد الصحون .. ثم استمر مسلسل العنف الذي يمارسه "ع" على أخوته طيلة أعوام..

أما في المدرسة فقد كان "ع" طالباً مجتهداً وجباناً وكان يتلقى من أقرانه التوبيخ والإهانات دائماً..

كبر "ع" والوضع لا يزال قائماً، عنفٌ في المنزل وتعنيفٌ في المدرسة .. وبعد توالي السنين أنهى المرحلة الثانوية وقرر دراسة العلوم السياسية.. وفي أثناء دراسته في الجامعة كان انطوائياً جداً وكان يخشى دائماً التقرب والتودد لأحد زملائه..

انقضت فترة دراسته في الجامعة وتخرج بمعدلٍ عالٍ مما سمح له بإكمال مسيرته في الدراسات العليا..

لعب الحظ والقدر دورهما في حياة "ع" ف عُيّن في منصبٍ في وزارة الخارجية ثم بدأ بالترقي شيئاً فشيئاً إلى أن أصبح ذات يوم مسؤولاً مهماً بصلاحياتِ كبيرة ونفوذ وجاه..

حينها، بدأت الأعراض بالظهور مجدداً والتفشي .. صار يظلم الخدم ويضرب السائقين ويعذب المرؤسين ويملي عليهم أحكامه الجائرة ..

واستمر ظلمه وإجحافه أعواماً طويلة..

وفي يومٍ مشرقٍ بالنسبة للمحيطين به وشديد الظلمة بالنسبة ل "ع" حدث ما لم يكن في الحسبان.. حيث أعفي "ع" من منصبه وعاد للجلوس في منزله دون سلطةٍ أو مسؤوليات..

فاضطر حينها أن يخلق لنفسه سلطةً داخل منزله فصار يعذب الأولاد ويضطهد أمهم ..ألى أن جاء ذاك اليوم الذي ثار فيه أهل بيته و هجروه ليبقى "ع" وحيداً حزيناً لا يجد من يفرض سلطته عليه..

حاول صديقنا أن يجد حلاً وأن يحاول التخلص مما اكتسبه من حبٍ للسلطة والاستعلاء على الغير.. وكان من محاولاته أنه جاء إليّ يستنجد الدواء..

وخلال جلساتي معه.. أخبرني بأنه كان محقاً عندما ضرب أخوته لأنه قادرٌ على ذلك وبأن أصدقائه كانوا على حق عندما تعرضوا له بالإهانات لإنه كان ضعيفاً وبأن والده اعتاد توبيخه وضربه عندما كان يخطئ..

وكان إهمال زملائه له في الجامعة يرجع إلى ضعف شخصيته وخوفه وحين تهيأت له الأسباب ليصبح ظالماً لم يتوانى عن ذلك..

**أيقنت حينها أن هذا المرض هو شيءٌ طبيعي في مجتمعنا وبأن الأمر يتطلب حلولاً جذرية ..**

**********

## مذكرات جندي يلفظ أنفاسه الأخيرة

في خضم تلك المعركة وحين بدأ حسّان يشعر بأنَّ ملك الموت يجلس بقربه ويهيئ نفسه لقبض روحه ألقى بندقيته وأسند ظهره إلى الحائط الذي كان يحتمي به مستحضراً بعض الذكريات ومنتظراً رصاصة الرحمة..

قصَّ شريط الذكريات لحظةٌ وقوفه أمام زوجته وإخبارها بأنه سيلتحق بصفوف المحاربين دفاعاً عن وطنه وأرضه والحديثُ الذي دار بينما:

_رفيقة دربي، الحرب تنهش وطني والطامعون كثر وليس للوطن سوى أبنائه الشجعان.. وأودُّ أن أكون واحداً منهم..

اجتاح الصمت المكان لبضع دقائق وسقطت أولى الدمعات فاسحةً المجال لهطول المزيد.. ثم أجابت بصوتٍ مختنق:

_دائماً ما كنت أنت وطني، ومن واجبي صونك وحمايتك.. وهذا لن يكون إلّا بقول لا التي لن تجدي..

حينها أمسك يدها وقرب رأسها إلى صدره وهمس في أذنها..

_أعدك بأنَّ كلانا سينتصر وسيبقى وطننا سالماً..

صوت أحد القنابل التي انفجرت في الجوار أعاده إلى ما بدأ به واختاره..

فردد الكلمات الأخيرة:

**إما الموت في سبيل وطني وفي هذا الموت فقدان زوجتي لوطنها..**
**وإما البقاء والحفاظ على كلا الوطنين آمنين..**

صباحٌ مشرق على غير المعتاد..

مازال يحوم حولي بعض الاستغراب أو أن نظرات أمي لي عندما رأتني أستيقظ مبتسماً هو ما ألمح لي بأنَّ ما يحدث خارجٌ عن المألوف..

سأقوم بترتيب الأحداث بغية مشاركتها على الورق..

استيقظت بعد ثلاث ساعاتٍ من النوم ذابل العينين ترتسم على وجهي ابتسامة أشبه بمعجزة وفي دواخلي مشاعر فرح..

جلست أنظر إلى الأفق نظرة المقبل على الحياة مما أثار فضول أمي ف همّت بسؤالي..

_أتشكو من شيء يا بني؟

اتسع نطاق ابتسامتي ونهضت لأغمر وجهي بماء الحياة.. وحين عودتي مروراً بالمطبخ قبلت رأس أمي وهي تعد القهوة وتدندن ترانيم فيروز..

_أجدني مشرقاً وفرحاً يا أماه، بل وأشعر بلذة الحياة..كم طال غياب السعادة يا أمي..

أومأت برأسها وأردفت:

_حدث هذا منذ عدة سنوات يا بني..

دلفت إلى الغرفة مجدداً وقمت بالسماح لهاتفي بأن يطلق ألحان معشوقتي وأمسكت أوراقي التي ماتزال تذرف بعض الدموع حزناً على ما كتبته ليلة أمس، ثم أمسكت قلمي الذي كان يطلق إشارات الاستفهام وأظن أن مرد ذلك دفء يدي ومداعبته لأول مرة ..

سكونٌ دام بضع لحظات شعرت فيها بالارتباك، لم تطرق السعادة بابي منذ زمن ولم أكتب عنها مطلقاً..

أطلَّ وجه أمي تحمل بيدها فناجين القهوة ف كتبت:

"يسعد صباحك يا حلو" على أمل العثور على المزيد..

**********

الآن أغادر أرض السعادة وأعود خاوياً إلى أوراقي لا أحمل أيّ مشاعرٍ أو أحاسيس، وهنا تكمن الكارثة..

لم يعد هناك ما أفصح به للأوراق وليس هناك ما أبوح به..

لم تعد قطرات الدم التي تسبح داخل قلبي تحمل ما يمكن البوح به كما كانت سابقاً.. ودقات قلبي تتسارع مستنجدة ومستغيثة..

أنفاسي ثقيلةٌ ومرة تحمل أرطالاً من التعب والروح تجلس في أحد الزوايا وتخبئ وجهها بين كفيها لتخفي أسفها وعجزها..

العقل خائفٌ من إحالته على التقاعد والتوقف عن العمل والجوارح في حالة استنفار، تنتظر موتها القادم..

كلٌّ ما في داخلي دخان..

كما أن الأشياء حولي كبيرةٌ ومقفرة لدرجة أني بِتُّ أشعر بأنَّ طرقات عقارب الساعة ثقيلة ومؤلمة.. تدق في أذني وتمزّق أوردة قلبي

الظلمة تغرقني واليأس يأكل آخر كلماتي..

**********

كان الجميع يركض هارباً من المطر وكنت أسير مثقلاً حزيناً على فراق الشتاء.. فجأةً، ودون أن أدرك ما دفعني لذلك، دنوت لأستنشق عطر أحد الزهور.. ثم أغمضت عينيّ مستذكراً بعض الذكريات..

وحين أبصرت من جديد أشرقت شمسٌ بددت غيوم قلبي وبعثرت أوراق حزني ..

كانت تلك الشمس على هيئة فتاة ارتسم في عينيها الدفء وعلى خديها تناثرت الأضواء..

وقفت بجانبي تتأمل الورود وتمدها بعطرٍ منها.. ثم أخرجت هاتفها ل تلتقط بعض الصور..

كان المشهد جميلاً.. رسم على وجهي ابتسامة أملٍ وإعجاب..

ودون إنذارٍ مُسبق ..أطلقت العنان ل ابتسامتها على حين غرة ل تدع قلبي أسيراً خلف قضبان ضحكتها..

كنت أشعر بأنَّ ما يدور حولي هو مجرد حلم جميل فقررت الاقتراب مجازفاً وألقيت التحية..

_مساء الخير

نظرت إليّ مبتسمةً ثم غرّدت بصوتها العذب:

_مساء النور..

بضع لحظاتٍ من الصمت حاصرت المكان لكن صوتها ظلَّ يتردد في داخلي.. لتعاود طرق باب قلبي من جديد..

_أراك هجرت عالمنا..

تدفق في داخلي بعضٌ من الشجاعة التي دفعتني للقول:

_أظنُّ بأنَّكِ قد نُسجتِ من خيوط الشمس..

**********

شيءٌ ما أيقظني من سباتي.. لربما كانت آخر نسمات الشتاء الباردة أو همساتٍ لم أكن متيقناً من صحة أنها قيلت، شيءٌ ما حملني على مغادرة منزلي دون أن أدرك الوجهة التي أقصدها

كان الطريق خالياً والصمت يسود الأجواء، حتى أنني لم أكن أسمع صوتي عندما سألت نفسي عما أفعله..

كما أن الزمان كان عصياً على الإدراك والظلام يشتد.. وفي غفلةٍ من أمري وجدتني أمام طريقٍ مسدود.. أمام جدارٍ يملأ المساحة الخالية..

التفتُّ كي أعود أدراجي ففوجئت ب طيفٍ لا يظهر منه سوى بعض النور الطفيف..

تسارع النبض في داخلي وشعرت بقطرات العرق البارد تنساب على وجنتي..

مايزال الصمت يسود المكان ويسودني وما أزال عاجزاً عن الحديث..

أظنني أحلم _قلت في نفسي.

_لا ليس حلماً _قال الطيف.

اشتدَّ الرعب ف تساءلت دون صوت

_كيف استطاع قراءة ما يجول في داخلي؟

ليجيبني الطيف:

_أنا صمتك وأفكارك.. وما تراه في هذا العالم هو جزءٌ تحاول جاهداً أن تخفيه..

_لكنني أعيش هانئاً والصمت الذي يطبق على حياتي هو ملاذي..

_ستبقى الحقيقة مدفونةً في هذا العالم الذي اخترت العيش فيه.. كفَّ عن الكذبِ والتستّرِ وراء صمتك.

_لكنَّ الصمت ليس كذباً..

**********

الظلام يحيط بي والصمت يسود المكان..

ما أزال عاجزاً عن النهوض. أشعر بشوقٍ شديد للأوراق ومردَّ ذلك هو حاجتي للتخلص من الثقل الذي يعجزني..

الفراغ يسيطر على عقلي المنهك والكلمات تهجرني وصوت الآذان ينذرني بأن موعد الإفطار قد حان.. لكنني عاجزٌ عن النهوض ولا أشعر ب جوعٍ إلا للكتابة..

أمسك بهاتفي وأخبر أحد الأصدقاء بأن الاكتئاب يستملكني وبأنني أشعر بخيانة الكلمات لي وبأنني حين لا أكتب أكون في أقصى مراحل الكآبة، فيجيبني ممازحاً بأن إلهام الكتابة قد ذهب في عطلة وبأنه سيعود قريباً، وأخبره مختصراً بأنه محق رغبةً مني في إنهاء الحديث..فلم أعد أقوى على التحدث..

بعض نسمات الهواء تسللت من نافذتي وبعثرت أوراقي. الأوراق توشك على الذهاب، أظنها تغادر ذاهبةً لكاتبٍ آخر.. أظنها قد سئمت قلة حيلتي.

بعد جهدٍ جهيد أقاوم ضعفي وأنهض.. أنتشل إحدى رواياتي وأبحث بين سطورها عما يحيي إلهامي..

أجلس وراء طاولتي وأنظر إلى الأوراق التي تتناثر هاربة وإلى القلم الذي يكاد حبره ينفد.. أظنه كان ينزف شوقاً مثلي..

أطأطئ رأسي مثقلاً فيلامسني طيفٌ مشوّهٌ من أطياف الكتابة ويقول لي بصوتٍ من يلفظ آخر الأنفاس:

**أظن بأن رحلتك قد انتهت.. لملم شتات روحك وحاول من جديد..**

**********

كنت أظن دائماً بأنَّ وجود النفق شيءٌ أساسيّ وضروري وبأنَّ السعي إلى نهاية النفق والتلذذ بالنور المنبعث أخيراً هو غاية الغايات، هكذا ظلوا يرددون على مسامعي حتى أمضيت ثلاث سنوات وأنا أبحر في ظُلمة النفق إلى أن أدركني الملل، فأصبحت أنتظر ذاك القطار ليخلِّصني، ليحملني بعيداً أو يدهسني برفقة أحلامي..

ثلاث سنواتٍ أمضيتها في المكان الذي أصبح ملجأي وملاذي.. في النفق الذي اتخذته عزلتي..

كنت أشعر في بعض الأحيان بأنني مطالبٌ باجتياز ذلك النفق لكنني فوجئت لاحقاً بأنَّ النور الذي في نهاية النفق لم يكن يستحق كلَّ هذا السعي..

أصبحت نادماً على عدم بقائي في الظلمة وانتظار قطار الحياة ليدهس آخر أحلامي..

الآن، وبعد أن وطئت أقدامي نهاية النفق وأبصرت عيناي النور، أدركت بأنَّ رحلة الضياع قد بدأت هنا.. وبأنَّ ما يسمى "غريزة البقاء" ستدفعني للهرب والنجاة وإكمال المسيرِ في حياةٍ لا بداية لها ولا نهاية.. في حياةٍ لا معالم لها ولا فائدة.. سعيٌ متواصل لشيءٍ لا تدركه..

**********

لم تلقَ عودتي إلى المنزل ذلك الاستقبال الحافل الذي اعتدته. كانت الغرفة التي أسكنها مظلمة وساكنة، لا صوت فيها، وكان هذا المشهد غريباً وغير مألوف فتسرّب إلى داخلي بعض القلق.. لدرجة أنني استغرقت بعض الوقت للعثور على زر الإنارة..

كانت النافذة مفتوحة والغرفةُ خاليةً تماماً.. سرت ببطئ نحو المطبخ لأتفقد وجود زوجتي المفقودة لكنها لم تكن هناك..

وضعت ما اقتنيته على الأرض ثم عدت إلى غرفتي ..

نسمة هواء حملت إليّ ورقةً بيضاء، انحنيت والتقطتها.. كانت زوجتي تخبرني بأنها ستعود قريباً وبأن لا أقلق، عدت إلى المطبخ مشتتاً وخائفاً.. فقد كان خطها سيئاً على غير العادة..

حضرت فنجاناً من القهوة ثم عدت ورتبت طاولتي وتناولت كتاباً وبدأت أقرأ..

مضى من الوقت ساعةٌ كاملة فنهضت والقلق يشتدُّ أكثر وصرت أذرع الغرفة جيئةً وذهاباً إلى أن سمعت صوت الباب يُفتح..

دخلت زوجتي وعلى وجهها علائم السرور ثم هرعت إليّ وقبلتني وأسرعت نحو طاولتي فسكبت لنفسها فنجان قهوة وبدأت بالكتابة..

كنت أقف مشدوهاً أنتظر منها تفسيراً لما يحدث.. اقتربت فرأيتها منهمكةً في الكتابة فآثرت أن أنتظر ..

وبعد مضي نصف ساعة.. التفتت نحوي وقرأت في عينيَ أمارات التعجب فألقت عليّ ابتسامةً واسعة وقالت:

_اعذرني يا عزيزي فقد كنت في حاجةِ ماسة للخروج والتنزه بحثاً عن فكرةٍ تلهمني للكتابة.. وها أنا ذا أعود ظافرة..

_أكان سبب غيابك هو البحث عن أفكارٍ تكتبينها؟

هزّت رأسها مبتسمة.. ف أردفت:

_وهل سنتناول قصتكِ وكلماتكِ مشويةً أم مطهية؟

أخفضت رأسها خجلة ثم قالت:

_ألم تقل لي دائماً بأنّك تتغذى على كلماتي؟

أمسكت يدها وقبلتها ثم أخبرتها بأنَّ الجوع قد يدفعني ل التهامها فأسرعت نحو المطبخ تُحضِّر الطعام.. وأثناء ذلك سطرت فوق أحد الأوراق:

"هذا ما سيحدث إن تزوجتها كاتبة"

**********

# نقد العقل العربي

ما يثير الدهشة في عالمنا العربي هو كثرة الشعارات وقلّة التطبيق.

الجميع يستشهد بقوله تعالى : " إنَّ الله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم" ، والجميع يقول : " يا أمة ضحكت من جهلها الأمم "

الجميع ينتقد العرب والجميع يشتم العرب ! من هم العرب المتخلّفون إذاً ؟

بالنسبة لي ك إنسانٍ عربي لا أردد تلك الشعارات.. أيُعقل أن أكون من أولئك الذين أنوي الكتابة عنهم؟ في واقعنا العربي كلٌّ شيء جائز.

يحتفل العرب اليوم بالذكرى السابقة لدخولهم موسوعة " غينيس" عن أكبر قرص فلافل و صحن "تبولة"..

أقيم بهذه المناسبة حفلٌ فنيٌ صاخب و بحضور أبرز مطربي العصر الحديث أصحاب الحناجر الذهبية و بحضورٍ مميز لراقصاتِ موهوبات..

بدأ الحفل في تمام الساعة العاشرة في فندقٍ كلّف خزينة الدولة العربية (الموحّدة) الكثير من المليارات ، كان هذا الفندق واحداً من أعظم المشاريع الإقتصادية على مر العصور وكان معلماً سياحياً باهراً..

قصَّ شريط الافتتاح أحد السلاطين بعد إجراء استفتاءٍ صغير فاز فيه بشرف القيام بهذه المهمة ، وبعد القيام باستفتاءٍ آخرَ فاز أميرٌ من الأمراء بشرف الإلقاء للكلمة الافتتاحية . مضت الساعة الأولى من الحفل على هذا المنوال.. الكثير من الاستفتاءات والكثير من الكلام والتطبيل والتزمير..

أما الساعة الثانية فكانت عبارة عن استراحةٍ بسيطة أحجم الجميع فيها عن الكلام و اكتفى ب تذوق الفن والجمال وأصناف الطعام التي لا تُعد ولا تحصى..

وعند الانتهاء من الطعام والشراب والجلسات التأملية و بعد أن أصاب التعب تلك الفرقة الموسيقية و بعض الراقصات قرر بعضٌ من أصحاب القرار و عليّة القوم التوجه إلى قاعة الاجتماعات لمناقشة بعض القضايا الهامة والمصيرية قبل العودة إلى إحياء الحفل..

وبعد أن جرى استفتاءٌ صغير وقع الاختيار على الحاكم الفلاني لبدء النقاش و اختيار أول المواضيع لطرحها على طاولة الحوار..

_أخوتي في الله .. أود أن أقص عليكم ما حدث معي منذ بضعة أيام..

بينما كنت في إحدى جولاتي الأسبوعية لتفقد أحوال المواطنين صادفني مشهدٌ قطّع أوصال روحي و بثَّ الألم داخل قلبي.. تخيّلوا معي يا سادة ، لقد شاهدتُ شرطياً يأخذ الرشوة من أحد المواطنين..

يا ليتني مت قبل هذا .. أتصدقون يا أخوتي!؟ موظفٌ في بلادي يرتشي..

ساد الصمت والاستغراب لمدة دقيقة كاملة ، ثم أضاف عضوٌ آخر في الاجتماع أظنه يتقلّد منصباً حكومياً رفيعاً :

_يا للأسف .. هذا شيءٌ معيب ، لكنني أظن يا سيدي بأنّه ارتشى عن غير قصد .. فليس في بلادنا ما يدفعك لطلب الرشوة ، الحال مزدهر و الرواتب عالية ..

ثم أضاف مسؤولٌ آخر :

_لا بد لنا من التصرف بحزمٍ مع هؤلاء المرتشين والفاسدين وعدم التهاون معهم ..

وأضاف آخر :

لا بد لنا من إعادتهم إلى الطريق القويم .. إلى طريق الحق والهداية..

ثم أضاف حاكمٌ آخر :

_الفساد يا سادة ظاهرة منتشرة في جميع البلاد ولا سبيل للقضاء عليه.. دعوني أقص عليكم ما حدث معي أنا في طريقي إلى المكتب ذات صباح :

كان الجو شديد البرودة وبعض ندف الثلج تتساقط ، فإذا بي أصادف على رصيف أحد الشوارع ولداً بثيابٍ رثة مهترئة يقف عند إشارة المرور ويتسوّل..

أصاب الذهول أعضاء المجلس ف صرخ أحدهم :

_فقيرٌ في بلاد العرب ! هذا شيءٌ من المحال أن يُصدق.. لا بد وأنه جاسوسٌ جاء ليُخرب سمعة وطننا الحبيب وينشر الفتنة بين الناس.. أكمل يا صديقي .. أخبرني ، ماذا فعلت ؟

_أرسلته إلى الأحداث لإعادة تأهيله والاعتناء به..

صفّق أحدهم وهتف قائلاً :

_خيراً فعلت..

والآن .. دعونا نتحدث عن القضية الأكثر أهمية في أيامنا هذه ، قال أحدهم ويبدو بأنه كبيرهم ..

لقد تبيّن لي منذ مدة بأن الفن في بلادنا يتضاءل و الوعي يزداد والأمور تخرج عن السيطرة .. لا بد لنا من العثور على الحل..

_لا بد من استشارة بعض الخبراء الأجانب ، اقترح أحدهم.

_أو ربما علينا توجيه الأنظار لعدوٍ خارجي، اقترح عضوٌ آخر.

**_لا بد لنا من التشديد على إطاعة ولي الأمر و الصبر عند الشدائد، أقترح أحدهم أيضاً.**

**_لا بد لنا الآن .. أن ننهض ونُكمل حفلتنا و نؤجل المفاوضات إلى موعدٍ آخر نكلف فيه حكوماتنا العمل بما يقتضيه واقعنا ، هتف أحدهم.**

**وكان اقتراحه هو المقبول حقاً..**

**عادت الطبول تُقرع و الألحان تتمايل في سماء الحفل وأستؤنفت الأفراح والرقصات و دامت حتى وقتنا الحاضر.**

**********

إليكم هذه الفكرة الغريبة

لقد خُيّل إليّ عندما كنت جالساً أتأمل فراغ غرفتي منذ لحظات بأنَّي سأموت بعد عدة أيام..

فكرةٌ مزعجة وسخيفةٌ بعض الشيء ، أليس كذلك؟ .. كما أن الأعمار بيد الله جلَّ جلاله..

لكن ، دعونا نفرض هذا الافتراض المزعج ، واقبلوا مني هذا الهرج ودعونا نبحث في سرائرنا عما سيفضي إليه الحال في هذه الأيام المتبقية كما أرجو التمعن والقراءة فيما بين السطور..

سأبدأ بنفسي..

أدعى عمار ديب .. أعمل كاتباً وأكمل دراستي في العلوم السياسية شديد التعلق ب عائلتي و لي عاشقةٌ مولهٌ بحبها وأصدقاءٌ لهم من روحي نصفها..

في البداية و بما أنني أملك شغف الكتابة ف سأكون مشغولاً بعض الوقت في كتابة حروفي الأخيرة آملاً كل الأمل في أن تبقى ذكرى خالدة ، وهذا ما أرجوه دائماً وأحرص عليه

و ك طالبٍ جامعي فلن يفلح الحديث عن هذا في شيءٍ تقريباً..
لكني مع ذلك سأودع كتبي وسأكتب في صفحةٍ واحدة السياسة التي تمنيت انتهاجها ك رجل سياسة لو أني بقيت..

أما عائلتي ف سأكون حزيناً جداً لوداعها ، سأكتفي بالذكر :بأني سأُقبّل يد والدتي وأطلب الصفح من والدي وأحضن إخوتي وأزور أختي الزيارة الأخيرة..

كما سأقوم أيضاً بالسفر إلى أرض محبوبتي وأودّع عينيها الجميلتين أشدَّ الجمال وأقبّلُ جبينها وأطلب منها البقاء على العهد ومحاولة عدم نسياني..

وبالنسبة لأصدقائي ف سأخص بالذكر منهم صديقي المسافر .. سأخبره بأنَّه أعزُّ أصدقائي وبأنّي كنت أتمنى أن أمضي برفقته هذه الأيام..

كان هذا بإيجازٍ شديد جلُّ ما سأفعله في تلك الأيام لو كانت الأخيرة.. لكن مهلاً ، لماذا لا أفعل هذا دائماً ؟

لماذا أنتظر الأيام الأخيرة؟ من يدري.. ربما لن يكون بمقدوري معرفة أيّ الأيام ستنتهي ضمنها حياتي وربما كان هذا درساً أراد عقلي أن يلقنني إيّاه بإيحائي هذه الفكرة اللعينة..

ما رأيكم؟ ماذا ستصنعون لو قيل لكم بأنَّه قد تبقّى أمامكم القليل من الأيام وستغادرون الحياة بعدها؟

**********

# وهم

**السابع من ديسمبر**

**في صباحٍ شديد البرودة من صباحات ديسمبر البائسة، استيقظ السيد "ع" من نومة حزيناً كئيباً كعادته، برفقة المزيد من الندوب التي خلَّفتها العزلة على وجهه المتجعد الحنطي والتي تزدادُ يوماً بعد يوم..**

**لم يكن هذا اليوم كغيره من أيام السنة التي تتشابه إلى حدِّ الملل والبؤس، هي ذكرى وفاة زوجته الخامس والعشرين وذكرى ميلاده الخمسين، لقد جمع له سوء القدر بينهما، واختار ذلك اليوم بذكريين متناقضتين لكنهما في منظوره أصبحا بالقباحة ذاتها فما كان يلهمه الصبر هو تقدمه في السن ودنو أجله كما كان يعتقد في كل عام، ووعده الذي قطعه على نفسه وأمام زوجته في آخر لحظاتها معه.. ظلَّ وفياً لوعده دون أن يفكر في يوم من الأيام بالعدول عن قراره وفضَّل الاستمرار برفقة طيفها إلى أن يحين موعد لحاقه بها..**

**كان يقاتل طيلة أعوامه الخمس والعشرين جميع الكتب المصفوفة فوق الرفوف ويكتب كلَّ يومٍ على بعض الأوراق كماً هائلاً من الأشواق ومحاولات استحضارٍ لبعض الذكريات التي تبقيه قادراً على الوقوف والمسير على طرقات الحياة عندما تكون وحيداً..**

**ك معلمٍ للغة العربية كان السيد "ع" يدرك دائماً بأنَّ لغته وتلاميذه وبعض السطور التي يُسطّرها هي ملجأه وعالمه**

بعد تأملِ ل سقف غرفته دام ساعةً كاملة قرر أخيراً النهوض لكتابة الرسالة الخامسة والعشرين :

كنت أظن دائماً بأنها النهاية ، لكني في كل مرة كنت أعود وأشق طريقي مجدداً

عشت كثيراً من النهايات وفقدت كثيراً من قطع روحي لأدرك لاحقاً بأن لي سبعة أرواح..

أنا الآن أحاول الصمود أمام النهاية الأخيرة متمسكاً ببعض الآمال والأوهام..

يشق علي كثيراً أن أحارب ، لكنّ غريزة البقاء توقد في داخلي مزيداً من الرغبة.. لا أدري إن كانت هذه الرغبة ضروريةً ، فما عدت أجد دافعاً للبقاء..

وأعيش ذلك الصراع المعتاد الذي سلب مني روحي في كل مرة لكن الحرب هذه  أشد ضراوة وقسوة رغم أنها لا تزال في بدايتها ، روحي مفككة ومشؤومة ككلماتي التي لم يبقَ لي للنجاة سواها.. إنّي شديد القلق.. أخشى على هذه الحروف أن تفقد بريقها فأفقد القشة التي ظللت أتعلق بها طويلاً..

وفي لحظات شرودي التي دائماً ما كنت أحاول فيها اقتناص بعض الكلمات الملائمة لساعات اليأس هذه رحتُ أيضاً أبحث عن سببٍ وجيه يدفعني لكتابة هذه الكلمات فلم أجد سبباً مقنعاً سوى أني فقدت قدرتي المعتادة على التفاؤل ولأنها آخر المعارك ولأني بدأت

أعيش خصاماً كبيراً مع الصبر ، فأجدني مستسلماً رغم وجود العديد من المعارك المتبقية..

ربما تكون هذه نعوتي وآخر قطرات الحبر في قلمي وآخر صفحاتي التي كنت أبذل في سبيلها دائماً قطرات من الدم وأنثر عليها من نفحات روحي.. لكني أعيش معركةً أخيرة مع النهاية الأخيرة وأضع روحي على كفي، فإن استشهدت هذه الروح السابعة وفقدتها فمن المؤكد أني سأفقد معها كل شيء..

ربما تبقى عشر أعوام.. من يدري

قريباً سينتهي هذا الوهم

**********

في كلِّ يوم تعيش الكثير من الصراعات داخل عقلك وقلبك وتشعر بالضياع فلا تدرك بأيِّ الطرق تسير.. تلتجئ إلى الكتابة وتبدأ مشاركة ذاك الجنون على الورق الذي يستقبل بصدرٍ رحب كلَّ ما تشعر به من ألمٍ وفرح..

ها أنا ذا أُتمّ عاماً من الهلوسات على الورق.. صحتي بدأت تتحسن والكلمات التي وصلت إليكم مثقلة بالكثير من الحزن.. كونوا حذرين ولا تسمحوا للكلمات بأن تزيد من أحزانكم.. فكلٌّ منا يملك ما يكفيه..

فقط اقرأ ودع عقلك يعيش ذاك الصراع..

عمار عبد السلام ديب